[١٩]

« بنو إسرائيل المعتدون فى السّبت يُمْسَخون قِردة »

الآيــات (١٦٣ ـ ١٦٦)

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ
لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

أشارت آيات القسم السّابق إلى أنّ من بنى إسرائيل عادلين وظالمين . وإنّ آيات هذا القسم تتحدّث فى مجموعها عن مظهرٍ من مظاهر ظلم أهل قريةٍ من بنى إسرائيل لأنفسهم . إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ أن يسأل بنى إسرائيل على جهة التّوبيخ عن قرية أيلة الّتى كانت على ساحل البحر الأحمر بين مصر والمدينة إذ يعتدون يوم السّبت بصيد الحيتان الّتى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرةً على الماء قريبةً منهم متحرّشةً بهم وفى غير يوم السّبت لا تأتيهم ابتلاءً من الله تعالى لهم بسبب فسقهم. إنّ هذا الفريق الظّالم من بنى إسرائيل احتال أوّل الأمر لصيد السّمك بأن حبسه يوم السّبت فى حفائر وصاده فى غير يوم السّبت ثمّ صادوا يوم السّبت علانيةً وباعوا وأكلوا . ولمّا كان ثمّة فريقان آخران أحدهما ساكتٌ عن النّصح وآخرهما ناصحٌ فإنّ السّياق يشير إلى قول الفريق السّاكت للفريق النّاصح : ﴿ لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذّبهم عذابًا شديدًا ﴾ وإلى ردّ الفريق النّاصح عليه : ﴿ قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون ﴾ وحينما لم يأتمر الفريق الظّالم بالمعروف وينته عن المنكر وترك الموعظة ولم يعمل بها أنجى الله تعالى الّذين ينهون عن السّوء ، ويرجح أنّ الفريق السّاكت لحق بالنّاجين ، وأخذ الله تعالى الّذين ظلموا بعذابٍ أليمٍ شديدٍ بما كانوا يفسقون . وحينما قست قلوب القوم ولم يتوبوا إلى الله تعالى وقد أخذهم العذاب البئيس مسخهم الله تعالى قردة خاسئين حقيرين قيل إنّهم ماتوا جميعًا بعد ثلاثة أيّامٍ فقط . والله أعلم .

الآيـــة رقـــم (١٦٣)

قال تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يسأل على جهة التّوبيخ بنى إسرائيل المعاصرين له ﷺ والّذين كانوا يسكنون آنذاك منطقة المدينة المنوّرة عن أهل القرية من بنى إسرائيل وهي أيلة بين مدين والطّور[١] الّتى كانت حاضرة بحر القُلْزم قديمًا البحر الأحمر حديثًا وقُرْبه[٢] وعلى شاطئه[٣] وساحله[٤] عن ابن عبّاس قال : هي قريةٌ على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة[٥] إنّ ربّ العزّة حرّم على بنى إسرائيل العمل يوم السّبت . ولمّا كان عمل سكّان هذه القرية من بنى إسرائيل ذا علاقةٍ بالبحر وفى مقدّمة الأعمال الصّيد ، فقد كان محرّمًا على أهل القرية أن يصطادوا يوم السّبت . وبسبب فسق القوم وخروجهم عن الصّراط المستقيم ابتلاهم الله تعالى بفئةٍ من جنده جلّ وعلا وهي الحيتان بمعنى السّمك العظيم[٦] الّتى تأتيهم بإرادة الله تعالى من أماكن نائية فى يوم السّبت متحرّشةً بهم شارعةً ظاهرةً على الماء من كلّ طريقٍ وناحيةٍ كشوارع الطّرق[٧] رافعة رءوسها[٨] والشّارع : الطّريق الأعظم الّذى يشرع فيه النّاس عامّة[٩] « وشَرَعَ المنزل إذا كان على طريقٍ نافذ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ وتفسير ابن كثير ٢٥٧/٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حضر » ١٢٢ . (٣) انظر تفسير ابن كثير ٢٥٧/٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ . (٥) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حوت » ١٣٤ . (٧) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ .
(٨) لسان العرب : « شرع » ومعجم مقاييس اللّغة : « شرع » ٢٦٢/٣ .
(٩) لسان العرب : « شرع » .

وفى الحديث : كانت الأبواب شارعةً إلى المسجد أي مفتوحةً إليه . يقال : شَرَعتُ الباب إلى الطّريق أي أنفذته إليه ، وشرع البـاب والـدّار شـروعًا أفضـى إلى الطّريـق وأشرعه إليه ... وهذا كلّه راجعٌ إلى شيءٍ واحد ، إلى القرب من الشّيء والإشراف عليه »[1] مـن النّصـوص السّـابقة يتبيّـن أنّ مـادّة : « شـرع » تـدور حـول القـرب والظّهور ، الدّنوّ والإشراف . وتبدو قيمة هذه المعانى بشـأن القـول « شـرّعًا » فـى حقّ الحيتان الّتى تدنو من القوم وتظهر علـى المـاء وترفـع رءوسـها متحرّشـةً بـالقوم حينما نتبيّن أنّ جملة تأتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على البعد هي الّتـى تـأتى هنا فى القول : ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعًا ﴾ وإنّ هذا الابتـلاء مـن الله تعالى يذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة المائدة[2] : ﴿ يا أيّهـا الّذيـن آمنـوا ليبلونّكم الله بشيءٍ من الصّيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بـالغيب . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم ﴾ .

ومن تمام ابتلاء الله تعالى بنى إسرائيل أنّ الحيتان فى غير يوم السّـبت لا تـأتيهم . ولا نزال مع جملة : تأتى الّتى تدلّ على البعد المكانيّ هنا . إنّ السّمك العظيم المغرى باصطياده يأتى بنى إسرائيل فى يوم السّبت متحرّشًا بهم قريبًا منهم ظاهرًا فوق المـاء رافعًا رأسه ، وفى غير يوم السّبت يكون السّـمك نائيًـا عنهـم . إنّ ربّ العـزّة يبلـو القوم ويختبرهم فى هذه الطّريقة بسبب فسقهم وخروجهم عن الصّراط المستقيم .

إنّ هذه الفئة من بنى إسرائيل لم تصمد لابتلاء الله تعالى لها بالحيتان الّتى تتحرّش بها فى يوم السّبت المنهيّين عن العمل فيه فكيف بالصّيد فيه . وقد ابتدأ الصّيد بعمل حفائر للسّمك يحجزونه فيها يوم السّبت كي يصيدوه فى غير يوم السّبت : « وكثر ذلك حتّى صادوه يوم السّبت علانيـةً وبـاعوه فـى الأسـواق فكـان هـذا مـن أعظـم الاعتداء »[3] وإلى المعتدين فى السّبت أشار قوله عزّ من قائل فى سـورة البقـرة[4] :

---

(١) لسان العرب « شرع » .
(٢) الآية ٩٤ .
(٣) البحر المحيط ١/٢٤٥ .
(٤) الآية ٦٥ و٦٦ .

﴿ ولقد علمتم الّذين اعتَدَوْا منكم فى السّبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين . فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتّقين ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن المعتدين فى السّبت فإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى الحوار الّذى تمّ بين النّاهين للمعتدين فى السّبت والسّاكتين عن النّهي فإلى.

الآيـــة رقـــم (١٦٤)

قال تعالى : ﴿ وإذ قالت أمّةٌ منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذّبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون ﴾ .

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى أنّ ابتلاء الله تعالى القوم كان بسبب فسقهم وبذلك يكون القوم مواصلين ارتكاب المعاصى بما فى ذلك مواصلة الصّيد يوم السّبت رغم وعظ فريقٍ من أهل القرية لهم وإصرارهم على من مخالفة أمر الله تعالى لهم بعدم العمل فى يوم السّبت . والآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : واذكر يا محمّد إذ قالت أمّةٌ منهم تمثّل الفريق الثّالث السّاكت عن النّهي والوعظ والنّصح ، للفريق الثّانى النّاهى وللجماعة النّاصحة الواعظة : لِمَ تعظون قومًا الله سبحانه وتعالى مهلكهم ومبيدهم بسبب إصرارهم على معصية الله تعالى ، أو معذّبهم فى هذه الحياة الأولى عذابًا شديدًا بين يدي عذاب الآخرة الأشدّ . قال الواعظون نفعل ذلك معذرةً إلى ربّكم جلّ وعلا مربّى الجميع بنعمه وآلائه وبذلك نكون قد قمنا بما أمرنا به ربّنا جلّ وعلا من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ولعلّ القوم المعتدين فى السّبت يتّقون الله تعالى وتمتلئ قلوبهم بخشية الله تعالى فيعودوا إليه جلّ وعلا تائبين مستغفرين ويكفّوا عن صيد السّمك يوم السّبت . ومن البيّن تقديم الأمر الأكثر أهمّيّةً فى القول : ﴿ قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون﴾ إنّ رضا الله تعالى هو المقدّم فى كلّ الأحوال .

وحينما لم يستجب القوم للموعظة كان عذابهم أليمًا وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (١٦٥)

قال تعالى : ﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا بـه أنجينـا الّذيـن يَنْهَـوْن عـن السّـوء وأخذنـا الّذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون ﴾ .

إنّ المعتدين فى السّبت بصيد السّمك نسوا ما ذكّروا به وتركوا ما وعظوا به مـن قِبَل الفريق النّاهي واستمرّوا يصيدون السّـمك يـوم السّـبت فـأنجى الله تعـالى الّذيـن ينهون عن السّوء وارتكاب المعاصى وإتيان ما حرّم الله تعالى وأخذ عزّ وجلّ الّذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ أليمٍ شديدٍ وجيع[1] بما كانوا يفسـقون ويخرجـون عـن الصّـراط المستقيم. ومن البيّن جمع الآية الكريمة بين الظّلم والفسق . والمعـروف أنّ مـن أكـثر صفات بنى إسرائيل صفتي الظّلم والفسق على نحو مـا مـرّ بنـا بشـأن وصـف القـوم الّذين دخلوا القرية أو الأرض المقدّسة بقيادة يوشع بن نون عليه السّلام .

والعجيب فى حال أهل هذه القرية الواقعة على ساحل البحـر الأحمـر أنّ العـذاب الشّديد لم يردعهم عن الصّيد يوم السّـبت وعـن التّمـادى فـى غيّهـم فمسـخهم الله تعالى قردةً خاسئين . وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (١٦٦)

قال تعالى : ﴿ فلمّا عَتَوْا عمّا نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ .

عتا يعتو عُتُوًّا وعِتِيًّـا : استكبر وجـاوز الحـدّ . والعـاتى : الشّـديد الدّخـول فـى الفساد المتمرّد الّذى لا يقبـل موعظـةً . والعتـوّ : التّجبّر والتّكبّر[2] إنّ هـذا الفريـق العاصي لم يستفد من الموعظة ، ولم يحملـه العـذاب الشّـديد مـن الله تعـالى علـى أن يرعوي عن غيّه ويتوب إلى الله تعالى توبةً نصوحًا ، بل طغى واستكبر ، تمرّد وتجبّر،

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٩/٩ .

(٢) انظر لسان العرب : « عتا » .

وعتا عمّا نهاه الله تعالى عنه وعباده الصّالحون وجاوز الحدّ فى عدوانه وطغيانه فاستحقّ هذا الفريق أن يُمْسَخ قردةً والعياذ بالله . ﴿ فلمّا عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ صاغرين[1] ذليلين حقيرين مهانين[2] إنّ الآية الكريمة هنا لا تكتفى بمسخ القوم قردة وما أشدّ البون وأوسع الشّقّة بين الإنسان الّذى كرّمه ربّه جلّ وعلا ورزقه من الطّيّبات وفضّله على كثيرٍ ممّا خلق وبين القرد وهو من جنس الحيوان وكَفَى ، كما لا تكتفى آية البقرة كذلك بمسخ القوم قردة إنّما تصف كلٌّ من الآيتين الكريمتين وذلك النّوع الممسوخ من القردة بالذّلّة والصّغار والاحتقار. « وجمهور المفسّرين على أنّ الّذين مسخهم الله لم يأكلوا و لم يشربوا و لم يَنْسُلوا بل ماتوا جميعًا وأنّهم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيّام ..... وكان هذا فى زمن داود على نبيّنا وعليه أفضل الصّلاة والسّلام »[3] .

ومن البيّن أنّ السّياق سكت عن السّاكتين عن الموعظة ، وكأنّ السّياق بادل السّاكتين سكوتًا بسكوت . ويُظَنّ ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ هذا الفريق السّاكت عن النّهي وعن الوعظ قد لحق بفضل الله تعالى بالفريق النّاصح الّذى أنجاه الله تعالى بكرمه وجوده جلّ وعلا .

---

(١) الجلالين . (٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩ . (٣) البحر المحيط ١/٢٤٦ .

[٢٠]

« ليبعثنّ الله على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب ، وفى القوم صالحون وطالحون »

الآيـــات (١٦٧ ـ ١٧١)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ
أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾
۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

تبيّن أنّ المحور الّذى تدور حوله غالبًا آيات القسم السّابق هو ظلم بنى إسرائيل أنفسهم قبل سواهم . وتنطلق أولى آيات هذا القسم من هذا الظّلم فتقرّر فى خطابها للمصطفى ﷺ الّذى كان يحتاج فى تلك الفترة لتثبيت الفؤاد أنّ الله سبحانه وتعالى قد أعلم وأعلن ليبعثنّ على بنى إسرائيل قوم موسى عليه السّلام من يسومهم ويكلّفهم سوء العذاب إلى يوم القيامة . وإذا كان القول : ﴿ إنّ ربّك لسريع العقاب ﴾ ذا علاقةٍ بعذاب الله تعالى وغضبه فإنّ القول : ﴿ وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ ذو علاقةٍ برحمة الله تعالى الّتى تسبق غضبه جلّ وعلا وتسع كلّ شىء . وقد قطّع الله تعالى بنى إسرائيل فى الأرض أممًا واختبرها جلّ وعلا بالحسنات وبالسّيّئات لعلّهم يرجعون إليه جلّ وعلا ويتوبون توبةً نصوحًا . وبمرور الوقت كان اتّجاه هذه الأمم من بنى إسرائيل إلى الأسوأ غالباً فها هوذا خَلْف السَّوْء يرث التّوراة ومع ذلك هو يأخذ عرض الحياة الدّنيا الرّخيص ومتعها العاجلة ويقول إنّ الله سبحانه وتعالى سوف يغفر له مع أنّ التّوراة ليس فيها وعد المغفرة مع الإصرار . وإن يأت خَلْف السَّوْء عَرَضٌ آخر يأخذه ويكرّر كلّ مرّة القول : إنّ الله سبحانه وتعالى سوف يغفر لنا . إنّ القوم قد أخذ الله تعالى منهم العهد المؤكّد فى التّوراة ألاّ يقولوا على الله تعالى إلاّ الحقّ . إنّهم ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه . وإنّ الدّار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون ولكنّ القوم فى مجموعهم لا يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحًا . أمّا الّذين يستمسكون بالكتاب ويقيمون الصّلاة فليعلموا أنّ الله تعالى لا يضيع أجر المصلحين . وحينما أمر موسى عليه السّلام قومه بأن يقيموا التّوراة بجدٍّ واجتهادٍ قالوا له عيه الصّلاة والسّلام سمعنا قومك وعصينا أمرك فرفع الله تعالى فوقهم جبل الطّور كأنّه سحابةٌ تظلّهم وأيقنوا أنّه واقعٌ بهم وقيل لهم : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه ﴾ فقالوا عندها سمعنا وأطعنا . إنّ المطلوب من القوم أن يرقوا إلى درجة التّقوى الوجه الآخر للإحسان .

الآيـــة رقـــم (١٦٧)

قال تعالى : ﴿ وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ .

إنّ الآية الكريمة فى خطابها للمصطفى ﷺ تقول له عليه الصّلاة والسّلام واذكر يا محمّد إذ تأذّن ربّك وأعلم مربّيك بنعمه وأعلن منشّئك بآلائه جلّ وعلا ليبعثنّ على بنى إسرائيل وليسلّطنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ويكلّفهم ويذيقهم أشقّ أنواعه . واللاّم من ﴿ ليبعثنّ ﴾ لام القَسَم ، لأنّ الفعل ﴿ تأذّن ﴾ جرى مجرى القسم[1] وبذلك يكون الكلام على درجةٍ كبيرةٍ من الصّرامة والعنف . والمعروف أنّ حرف الجرّ : « على » يدلّ على الاستعلاء . فالله سبحانه وتعالى سيسلّط على بنى إسرائيل إلى يوم القيامة من يسومهم الخسف ويذيقهم الذّلّ . هذه القاعدة الأساسيّة بإذن الله تعالى . وحينما يحدث غير ذلك وقتًا من الأوقات فإنّه استثناءٌ بإذن الله تعالى كذلك . إنّ المؤمنين مثلاً حينما يعطون بنى إسرائيل العهد الّذى يأمنون به على دمائهم وأعراضهم وأموالهم إنّما يعطونهم إيّاه بإذن الله تعالى وقد جعل يد المؤمنين هي العليا . وإنّ غير المؤمنين حينما يعينون بنى إسرائيل على ظلم المؤمنين فى حال غياب خير أمّةٍ أخرجت للنّاس إنّما يفعلون ذلك بإذن الله تعالى استثناءً من قاعدة الذّلّ المضروبة عليهم هي والمسكنة .

وفى أعماق هذا التّعبير الّذى يُظَنّ أنّه لا يكاد يوجد فى حقّ بنى إسرائيل تعبيرٌ أعنف منه فى القرآن الكريم يجىء خطابًا للمصطفى ﷺ القول : ﴿ ربّك ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ فى القرآن الكريم يرتبط به الخصوص وإذاعة جوّ الامتنان لتربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب القيام بالشّكر لله تعالى عليها .

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/١٠٠ وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩ .

ولّما كان صدر الآية الكريمة يدور حول عذاب الله تعالى البئيس الشّديد جاء بعد ذلك القول : ﴿ إنّ ربّك لسريع العقاب ﴾ ويلاحظ أنّ القول : ﴿ ربّك ﴾ يجيء فى الآية الكريمة للمرّة الثّانية .

ولّما كانت رحمة الله تعالى تسبق غضبه ومغفرته جلّ وعلا تسبق عذابه جاء بعد ذلك القول : ﴿ وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ ومعروفٌ أنّ المغفرة تسبق الرّحمة وأنّ الرّحمة تترتّب على المغفرة . وإنّ الضّمير فى القول : ﴿ وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ يعود إلى القول القريب : ﴿ ربّك ﴾ علمًا بأنّ هذا القول جاء فى صدر الآية الكريمة .

وإذا كان بنو إسرائيل قد قطّعهم الله تعالى اثنتي عشرة جماعةً بعدد الأسباط أولاد يعقوب عليه السّلام الاثني عشر وفيهم يوسف عليه السّلام ، وإذا كانت كلّ جماعةٍ قد أصبحت أمّةً بعد ذلك ، وقد أومأت إلى ذلك الآية الكريمة السّتّون بعد المائة فى القول : ﴿ وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا ﴾ فإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى هذه الأمم من بنى إسرائيل وصفاتها فإلى .

الآيــة رقــم (١٦٨)

قال تعالى : ﴿ وقطّعناهم فى الأرض أممًا . منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسّيّئات لعلّهم يرجعون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة قطّع بنى إسرائيل فى الأرض العريضة الواسعة أممًا وجماعات . ومع أنّ القرآن الكريم يتحدّث عن بنى إسرائيل على عهد المصطفى ﷺ فإنّ هذه الحقيقة تزيدها اللّيالى والأيّام رسوخًا ووضوحًا . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسببٍ من مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مجال الإنباء بالغيب . ومن هذه الأمم صالحون يصحّ فيهم القول فى الآية الكريمة التّاسعة والخمسين بعد المائة من هذه السّورة الكريمة : ﴿ ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾ ومن هذه الأمم دون ذلك فهم غير صالحين ولكنّهم طالحون . وإنّ هذا التّعبير :

﴿ منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك ﴾ يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا على لسان الجنّ فى سورة الجنّ[1] قال تعالى : ﴿ وأنّا مِنّا الصّالحون ومِنّا دون ذلك كنّا طرائق قِدَدًا ﴾ .

وتمشّياً مع تقديم الصّالحين فى الذّكر وتأخير الآخَرين تَقَدَّم ذكر الحسنات وتأخّر ذكر السّيّئات فى القول : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسّيّئات لعلّهم يرجعون ﴾ إنّ ربّ العزّة يختبر بنى إسرائيل دائمًا بالحسنات من صحّةٍ وغنًى ويسرٍ وما إلى ذلك ، وبالسّيّئات من مرضٍ وفقرٍ وعسرٍ وما إلى ذلك لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه جلّ وعلا توبةً نصوحًا . وفى مثل هذا المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنبياء[2] ﴿ ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعون ﴾ .

ولمّا كانت القاعدة الأساسيّة فى حقّ بنى إسرائيل أن يضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة بسبب سوء أعمالهم وقد قال تعالى[3] : ﴿ ولا يظلم ربّك أحدًا ﴾ فإنّ الآية الكريمة الّتى تواصل الحديث عن بنى إسرائيل تتحدّث فى هذا المعنى فإلى.

الآيــة رقــم (١٦٩)

قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغْفَرُ لنا وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلاّ الحقّ ودرسوا ما فيه . والدّار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون . أفلا تعقلون ﴾ .

بعد الخَلَف (بفتح اللاّم) الصّالح من بنى إسرائيل جاء خَلْفُ (بسكون اللاّم) السَّوْء وإنّ خَلْف السَّوْء هذا ورث التّوراة عن الخَلَف الصّالح ولكنّه لم يعمل بها ولم يستمسك بتعاليمها . إنّ هذا الخَلْف يشترى بآيات الله تعالى ثمنًا قليلاً . إنّه يأخذ

---

(١) الآية ١١ . (٢) الآية ٣٥ . (٣) سورة الكهف ٤٩ .

العرض والقشور ويترك اللّبّ والجوهر . وإنّه يأخذ عرض المنحطّ مكانًا ومكانة . أمّا الانحطاك مكانًا فيفهم من اسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿ هذا ﴾ وأمّا الانحطاك مكانة فيفهم من وصف العَرَض بأنّه : ﴿ الأدنى ﴾ .

والعجيب فى أمر الخَلْف السَّوء أنّه يذنب ويزعم أنّ الله تعالى سوف يغفر له ، ويُصِرّ على ارتكاب الذّنب وعلى الزّعم ذاته ، علمًا بأنّه ليس فى التّوراة وعدُ المغفرة مع الإصرار[1] والدّليل على الإصرار بارتكاب الذّنب ومخالفة تعاليم التّوراة القول : ﴿ وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه ﴾ إنّ القوم يأخذون عرض هذا الأدنى كلّ مرّة ويقولون سوف يغفر الله لنا كلّ مرّة .

وتنكر الآية الكريمة فى أسلوب الاستفهام على القوم أن ينسوا ما أخذ الله تعالى عليهم من ميثاق الكتاب وعهد التّوراة المؤكّد بألاّ يقولوا على الله تعالى إلاّ الحقّ فلماذا يخالفون الآن هذا المعنى وينقضون الميثاق ويصرّون على اتّخاذ آيات الله تعالى هزوًا . وإنّ القوم الّذين ورثوا الكتاب السّماويّ درسوا ما فيه وفقهوه فدلّ ذلك على أنّ مخالفة القوم تعاليم الكتاب السّماويّ من قبيل الإصرار على الذّنب والعياذ با لله .

وإنّ هذا الفريق من بنى إسرائيل إنّما أصرّ على ذنبه لأنّه آثر الحياة الدّنيا على الآخرة ، ولأنّه بدلاً من أن يرقى رفيع الدّرجات حتّى يبلغ مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك : ﴿ أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ﴾[2] وعطّل نعمة العقل الّتى امتنّ الله تعالى بها عليه . إنّ هذه المعاني عبّرت عنها الجزئيّة الأخيرة من الآية الكريمة : ﴿ والدّار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون . أفلا تعقلون ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة تدور حول الخَلْف السَّوْء فإنّ الآية الكريمة التّالية تدور حول الخَلَف الصّالح فإلى .

---

(١) الجلالين .

(٢) سورة الأعراف ١٧٦ .

الآيـــة رقـــم (١٧٠)

قـال تعـالى : ﴿ والّذيـن يمسّكون بالكتـاب وأقـاموا الصّـلاة إنّـا لا نضيـع أجـرا المصلحين ﴾ .

الآية الكريمة تعد الخَلَف الصّالح بالأجر العظيم والثّـواب الكبـير . وعمـاد أعمـال هذا الخَلَف الصّالح أمـران مهمّـان . الأمـر الأوّل الاستمسـاك بتعـاليم التّـوراة بصفـةٍ عامّة. وقد جاء فى شأن التّوراة قول الحقّ جلّ وعـلا فـى سـورة المـائدة[1] : ﴿ إنّـا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونور ﴾ والأمر الآخر إقـام الصّـلاة . والمعـروف أنّ الصّـلاة عبادةٌ يتّجه بها العبد مباشرةً إلى بارئه جلّ وعلا . ولهذا كانت الصّلاة فـى الإسـلام تأتى بعد الشّهادتين على رأس أركان الإسـلام . والمعـروف أنّ ديـن الإسـلام الّـذى بعث الله تعالى به محمّد ﷺ ناسخٌ لكـلّ دينٍ سـواه وكـأنّ فـى الآيـة الكريمـة حثًّـا للمسلمين على الاستمساك بتعـاليم القـرآن الكريـم الّـذى تبيّـن سـنّة المصطفـى ﷺ معانيه ، وعلى إقام الصّلاة عماد الدّين .

ولمّا كان بنو إسرائيل فى مجموعهم بمنزلة الغلام الّذى بلغ السّعي بالقياس إلى عمر الإنسانيّة وحظّها من الرّشد ، وممّا يلائم هذه السّنّ صوارم الأوامر وقوارع الزّواجـر فقد أشارت الآية الكريمة التّالية إلى إحدى هذه القوارع فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٧١)

قال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّـوا أنّـه واقـعٌ بهـم خـذوا مـا آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾ .

حينما جاء موسى عليه السّلام من ميقات ربّه جـلّ وعـلا بـالتّوراة ووجـد قومـه يعبدون العجل كانت ثورته عليه السّـلام عارمـةً علـى شـقيقه هـارون عليـه السّـلام

---

(٣) الآية ٤٤ .

وقومه وعلى السّامريّ السّبب فى عبادة القوم العجل على نحو ما مرّ بنا من قبل . وأمر موسى عليه السّلام قومه أن يأخذوا التّوراة بقوّةٍ وأن يعملوا بما فيها بجدٍّ واجتهاد وكان منهم القول : سمعنا قولك يا موسى وعصينا أمرك . والآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : واذكر يا محمّد إذ نتقنا الجبل فوقهم واقتلعناه فرفعناه[١] فوقهم كأنّه ظُلّةٌ من الغمام وهي الظُّلّة الّتى ليس تحتها عَمَد بل إمساكها بالقدرة الإلهيّة[٢] وأيقنوا[٣] أنّه واقعٌ بهم وقيل لهم آنذاك خذوا ما آتيناكم بقوّة ، واعملوا بما أعطيناكم فى التّوراة من تعاليم بجدٍّ واجتهاد ، واذكروا ما فى هذا الكتاب العزيز من تعاليم سماويّة ولا تنسوها ، ولتكن قريبةً من ألسنتكم ، عالقةً بقلوبكم وأنفسكم ، مستمسكين بها قولاً وعملاً لعلّكم تتّقون النّار فى أولى مراحل التّقوى ، ترقون إلى مرتبة التّقوى أو الإحسان فى آخر مراحل التّقوى .

وكأنّ القوم الّذين يؤمرون بأن يأخذوا تعاليم التّوراة بجدٍّ واجتهاد وإلاّ وقع على رءوسهم جبل الطّور قالوا آنذاك : سمعنا وأطعنا . عن الحسن البصريّ قال : لمّا نظروا إلى الجبل خرّ كلّ رجلٍ ساجدًا على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى الجبل فَرَقًا من أن يسقط عليه . فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهوديٌّ يسجد إلاّ على حاجبه الأيسر يقولون : هذه السّجدة الّتى رُفِعَتْ بها العقوبة[٤] .

والآية الكريمة من سورة الأعراف ذات علاقةٍ بالآية الكريمة الثّالثة والسّتّين من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾[٥] وذات علاقةٍ بالآية الكريمة الثّالثة والتّسعين من سورة البقرة أيضًا . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واسمعوا . قالوا سمعنا وعصينا وأُشْرِبوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾[٦] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٧٤ .
(٢) انظر البحر المحيط ٤/٤٢٠ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .
(٥) درسنا الآية الكريمة فى : تأمّلات فى سورة البقرة ١/٣٨٤ — ٣٨٧ .
(٦) درسنا الآية الكريمة فى : تأمّلات فى سورة البقرة ١/٥٣٠ — ٥٣٥ .

ويبدو من الآيات الكريمات أنّ بنى إسرائيل قوم موسى عليه السّلام لم يستطيعوا فى مجموعهم أن يقاوموا الشّرك أو إغراء الوثنيّة إلاّ قليلاً وبخاصّةٍ العجل الّذى تغلغل حبه فى قلوبهم تغلغل الشّراب فى القلب وبلغ شغاف الفؤاد . والمعروف أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ هو الدّين الوحيد الّذى قضى منذ فجره على الوثنيّة قضاءً مبرماً ، ولله الحمد والمنّة .

[٢١]

« يأخذ الله العهد من بنى آدم وهم فى عالم الذّرّ
بإفراده جلّ وعلا بالعبادة »

الآيات (١٧٢ ـ ١٧٤)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ
ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

فى مقابل تبيين آخر آيات القسم السّابق الّتى تتحدّث عن بنى إسرائيل مظهرًا من مظاهر قوارع الزّواجر وصوارم الأوامر برفع جبل الطّور فوقهم والأمر بالأخذ بتعاليم التّوراة بجدٍّ واجتهاد دليلاً على أنّ القوم يمثّلون من عمر الإنسانيّة مرحلة الغلام الّذى بلغ مع والده السّعي ، فى مقابل ذلك يأتى فى أولى آيات هذا القسم ، خطابًا للمصطفى ﷺ القول : ﴿ وإذ أخذ ربّك ﴾ إنّ هذا الرّسول الكريم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين يخاطب فى آخر الكتب السّماويّة وأشرفها فى هذه الطّريقة الكريمة الّتى تدلّ على رفيع منزلته عند بارئه جلّ وعلا الّذى بعثه إلى الإنسانيّة جميعها وقد بلغت مرحلة الرّشد بدليل أنّ معجزته عليه الصّلاة والسّلام فكريّةٌ بيانيّة. إنّ السّياق يشير إلى أخذ ربّ محمّد ﷺ ربّ العالمين ﴿ من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم ﴾ وهم فى عالم الذّرّ وقد خاطبهم جلّ وعلا وسألهم وأشهدهم على أنفسهم قائلاً : ﴿ ألست بربّكم ؟ قالوا بلى شهدنا ﴾ وإنّما كان هذا الاستشهاد بالذّرّيّة ، وإنّما كان التّسجيل لهذه الحادثة الخطيرة فى القرآن الكريم لئلاّ تقولوا أيّها المشركون فى كلّ زمان ومكان ، يوم القيامة الّذى يقوم فيه النّاس لربّ العالمين من أجل فصل الحساب والثّواب أو العقاب : ﴿ إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ لقد أزال القرآن الكريم غفلتكم فذكّركم بالعهد الّذى أخذه الله تعالى منكم وأقررتم به بأن تفردوه جلّ وعلا بالعبادة ، ولئلاّ ﴿ تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم ﴾ ولئلاّ تسألوا دون وجه حقّ : ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ إنّ الله تعالى فطركم على توحيده جلّ وعلا وأنعم عليكم بنعمه الّتى لا تُحْصى وفى مقدّمتها العقل الّذى تميّزون به الخير من الشّرّ فلا معنى لزعمكم بأنّ أسلافكم ضلّلوكم وأفسدوا فطرتكم . إنّ مسئوليّتكم كاملة ، وإنّ ربّ العزّة يفصّل لكم دائمًا وأبدًا آياته لعلّكم ترجعون عن الشّرك إلى التّوحيد .

الآيـــة رقـــم (١٧٢)

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له : ﴿ وإذ أخذ ربّك ﴾ والمعنى : واذكر[1] أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم : ﴿ إذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم ﴾ وانظر إلى لفظ الرّبّ المتّصل به ضمير المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يُسْتَعْمَلُ فى القرآن الكريم فى مواطن الخصوص ، وحينما يكون الجوّ عابقًا بشذا الرّضا والودّ ، بقصد تنبيه العبد إلى ما يجب عليه من شكرٍ لله تعالى ، مربّيه بنعمه وآلائه . وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة السّابقة تشتمل على واحدٍ من أقوى مظاهر القوارع للزّواجر والصّوارم للأوامر ، وذلك برفع الجبل فوق بنى إسرائيل كأنّه سحابةٌ تظلّهم وأَمْرِهِمْ بأخذ تعاليم التّوراة بجدٍّ واجتهاد ، ونقارن بين هذه الطّريقة العنيفة فى التّعامل والخطاب دليلاً على طفولة المخاطبين وعدم بلوغهم الرّشد ، وبين القول اللّطيف فى خطاب المصطفى ﷺ : ﴿ وإذ أخذ ربّك ﴾ ندرك فحوى هذه الطّريقة اللّطيفة فى الخطاب وبليغ دلالتها على أنّ إرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين معناه بلوغ الإنسانية سنّ الرّشد وقدرتها على فهم معنى أحسن الحديث وإدراك أبعاده .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة قد أخذ من بنى آدم عليه السّلام من ظهورهم ذرّيّتهم وهم فى عالم الذّرّ وأشهدهم على أنفسهم بسؤاله جلّ وعلا إيّاهم : ﴿ ألست بربّكم ﴾ موجدكم من العدم ومربّيكم بنعمه وآلائه : ﴿ قالوا بلى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٧٥ .

شهدنا ﴾ والمعنى : قد شهدنا أنّك ربّنا لا إلـه إلاّ أنت ولا ربّ غيرك ولا معبود بحقٍّ سواك سبحانك .

وإنّ هذه المعاني العميقة والمرامي البعيدة إنّما يبيّن أبعادها ويعيّن حدودها أحاديث المصطفى ﷺ لأنّها من الغيب . وقد وردت أحاديث فى أخذ الذّرّيّة من صلب آدم عليه السّلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأنّ الله ربّهم[1] ومن هذه الأحاديث ما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال : يقال للرّجل مِنْ أهل للنّار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مفتديًا به ؟ قال : فيقول نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر آدم ألاّ تشرك بى شيئًا فأبيت إلاّ أن تشرك بى . أخرجاه فى الصّحيحين[2] وروى الإمام أحمد عن ابن عبّاس عن النّبيّ ﷺ قال : إنّ الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السّلام بنَعْمان[3] يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كلّ ذرّيّةٍ ذرأها فنثرها بين يديه ثمّ كلّمهم قُبُلا[4] قال : ﴿ ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا مِنْ قَبْلُ وكنّا ذرّيّةً من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ وقد روى هذا الحديث النّسائيّ فى كتاب التّفسير من سننه[5] وعن ابن عبّاس أنّ الله مسح صلب آدم فاسخرج منه كلّ نسمةٍ هو خالقها إلى يوم القيامة وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . فلن تقوم السّاعة حتّى يولد من أعطى الميثاق يومئذٍ . فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأوّل . ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الميثاق الأوّل . ومن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .
(٣) نعمان بالفتح ثم السّكون ، هو نعمان الأراك ، وادٍ بين مكّة والطّائف ، جنب عرفة . معجم البلدان وتفسير الطّبريّ ٩/٧٦ .
(٤) القُبُل من المقابلة والمعاينة .
(٥) تفسير ابن كثير ٢٦١ .

مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأوّل على الفطرة[١] .

وروى الإمام أحمد أنّ عمر بن الخطّاب سئل عن هذه الآية فقال عمر بن الخطّاب سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : إنّ الله خلق آدم عليه السّلام ثمّ مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرّيّة . قال : خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون . ثمّ مسح ظهره فاستخرج منه ذرّيّة . قال : خلقت هؤلاء للنّار ، وبعمل أهل النّار يعملون . فقال رجل : يا رسول الله : ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ. إذا خلق الله العبد للجنّة استعمله بأعمال أهل الجنّة حتّى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنّة فيدخله به الجنّة . وإذا خلق العبد للنّار استعمله بأعمال أهل النّار حتّى يموت على عملٍ من أعمال أهل النّار فيدخله به النّار . وهكذا رواه أبو داود والنّسائيّ والتّرمذيّ وابن حبّان[٢] .

وممّا يؤكد الميثاق ويقوّيه أمران اثنان . أوّلهما بعث الله تعالى النّبيّين مبشّرين ومنذرين ، فإنّ التّذكير به على لسان صاحب المعجزة قائمٌ مقام ذكره فى النّفوس[٣] وآخرهما الفطرة الّتى فطر الله تعالى النّاس عليها ، باستعدادهم الفطريّ لأن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وأن يفردوه وحده جلّ وعلا بالعبادة ، قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفًا . فطرة الله الّتى فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون . منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين . من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا . كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون ﴾ وفى الصّحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ، وفى رواية : على الملّة ، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تولد بهيمةٌ جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء[٥]

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٢ .
(٣) الجلالين .
(٤) سورة الرّوم ٣٠ - ٣٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال . قال رسول الله ﷺ : يقول الله إنّى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم(١) .

وهذه الفطرة على درجةٍ كبيرةٍ من الرّقّة والشّفافية والقابليّة للانحراف بها عن الصّراط المستقيم والتّحوّل بها من التّوحيد إلى الشّرك . والدّليل على ذلك الأعداد المخيفة للمشركين الّذين انحرفت فطرهم عن سواء السّبيل .

وإذا كان التّذكير بالميثاق قائمًا مقام ذكره فى النّفوس فإنّ التّذكير به على هذا النّحو يشار إليه بالقول فى الآية الكريمة : ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ والمعنى : لئلاّ تقولوا يوم القيامة(٢) وكيلا تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين(٣) فها هو ذا القرآن الكريم ينبههم من غفلتهم ، ويذكّرهم بالعهد الّذى أخذه الله تعالى منهم وهم فى عالم الذّرّ بأن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة وبألاّ يشركوا به شيئًا .

وإذا كانت الفطرة شديدة الحساسية سريعة التّأثّر ، وكان إشراك السّلف من وسائل انحراف الفطرة عن سواء السّبيل وسرعة التّحوّل من التّوحيد إلى الشّرك فإنّ الآية الكريمة التّالية تؤكّد هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٧٣)

قال تعالى : ﴿ أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد ذكّرت بالميثاق الّذى أخذه الله تعالى من بنى آدم عليه السّلام وهم فى عالم الذّرّ لئلاّ يقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ اجتالتهم : حوّلتهم عن قصدهم .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٤ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٨١ .

فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية قد ذكّرت بقدرة الآباء المشركين والأجداد على إفساد الفطرة وتعطيل العقول والاندفاع إلى الشّرك بتأثير الجماعة الضّالّة المندفعة إلى الشّرك. ومعنى الآية الكريمة : أو لئلاّ تقولوا أيّها المشركون : ﴿ إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم ﴾ على آثارهم نهتدى وبشركهم نقتدى ، فلسنا المبتدعين للشّرك ولكنّنا المتّبعون للمشركين ، فليس الذّنب ذنبنا ولكنّه ذنب المشركين الّذين أضلّونا . وقد عبّر الإمّعات عن هذه المعانى فى سؤالهم غير المحقّين فيه : ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ والمعنى : أفتهلكنا يا ربّنا بإدخالنا النّار وبئس القرار بسبب فعل المبطلين من سلفنا الّذين أبطلوا فى دعواهم إلـٰـهًا غير الله[1] والّذين كان قولهم لا حقيقة له[2] ويبطل الحقّ[3] .

وهكذا تتبيّن مسئوليّة كلّ إنسانٍ عمّا يأتى من خيرٍ أو شرّ فلا تزر وازرةٌ وزر أخرى ، ولا يُسْأل إلاّ عمّا كان يعمل وحده . فعلى كلّ إنسانٍ أن ينتفع من نعم الله تعالى الّتى أسبغها جلّ وعلا عليه ، وفى مقدّمتها العقل الّذى يعرف به بإذن الله تعالى الخير من الشّرّ وأحسن الحديث كي يتّبعه ويتمشّى بموجبه ، وآيات الله تعالى المفصّلات كي يتدبّرها ويرجع إلى الحقّ بموجبها إن كان بعيدًا عن الحقّ . وفى هذه المعانى تحدّثت .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٨١ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بطل » ٥١ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بطل » ٥١ .

الآيـــة رقـــم (١٧٤)

قال تعالى : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ولعلّهم يرجعون ﴾ .

إنّ ربّ العزّة كما بيّن فى هذا الكتـاب العزيـز تلـك الأسـرار الخفيّـة ، وكشـف تلك الأمور الغيبيّة ، وأكّد فى حقّ كـلّ إنسـانٍ كـامل المسئوليّة ، يفصّـل فـى كـلّ المواطن آيات هذا الكتاب العزيز البيّنات ، وحججه الباهرات القـاهرات ، وبراهينـه الواضحات الدّامغات ، من أجل أن يرجـع المشـركون عـن شـركهم ، ويكفّـوا عـن ضلالهم ، وينتهوا عـن حمقهـم ، ويتحوّلـوا إلى صـراط العزيـز الحميـد مـع إخوانهـم المسلمين الّذين يؤمنون بالله تعالى ربًّـا ، وبالإسـلام دينًـا ، وبالرّسـول ﷺ إمامًـا ، وبالقرآن الكريم منهاجًا .

[٢٢]

« مَثَل الّذى ينسلخ من آيات الله كمثل الكلب ، والكافرون كالأنعام بل هم أضلّ »

الآيــات (١٧٥ ـ ١٧٩)

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا
فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ
ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾
وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

بقصد إنذار المكذّبين بأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يتلو على الكافرين فى المقام الأوّل وفيهم بنو إسرائيل ، وقد عرفنا أنّ هذه السّورة المكّيّة كثيرة الحديث عن بنى إسرائيل ، وأن يقصّ عليهم نبأ الّذى آتاه الله تعالى آيات التّوراة وعلم الكتاب فانسلخ من آيات الله تعالى كما تنسلخ الحيّة من قشرها والأفعى من جلدها . إنّه فعل ذلك عن عمدٍ وسبق إصرار فلحقه الشّيطان الرّجيم من خلفه وأدركه وكان له قرينًا وقائدًا فكان من الغاوين بعد رشد ، الضّالّين بعد هدى . إنّ الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يرفعه بعلمه لأنّه أراد لنفسه الضّعة فأخلد إلى الأرض ولصق بها

ولزمها وجعلها منتهى همّه واتّبع هواه الّذى جعله إمامًا ونفسه الأمّارة بالسّوء الّتى جعلها له قائدًا . وبئس الشّيطان لاحقًا والهوى سابقًا . إنّ مَثَلَ هذا الّذى لزم الكفر على كلّ حال وأعرض عن سماع دعوة الحقّ فى كلّ صورةٍ وبكلّ وسيلةٍ كمثل الكلب الّذى يلهث دائمًا سواءٌ حملت عليه وطردته ، أو تركته وأهملته . إنّ مثل ذلك الكلب الدّائم اللّهَث كمثل القوم الكافرين الّذين يكذّبون بآيات الله تعالى . وإنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقصّ القصص لعلّ المكذّبين يعتبرون . وإنّه : ﴿ ساء مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ إنّ الّذى يهديه الله تعالى هو المهتدى حقًّا لأنّ الله يهدى الّذى جاهد فى سبيله سبله ويزيده هدًى إلى هداه ، وإنّ الّذى يضلّه الله تعالى هو الخاسر حقًّا لأنّ الله تعالى يزيده ضلالاً إلى ضلاله . والله سبحانه وتعالى ذرأ وخلق لجهنّم كثيرًا من الجنّ والإنس ، لأنّه جلّ وعلا هداهم فاستحبّوا العمى على الهدى وأملى لهم فأساءوا فهم الإمهال وظنّوه إهمالاً . إنّ الأمر قد انتهى بالقوم إلى كون قلوبهم الّتى فى صدورهم لم تعد تفهم ولا تفقه فاقتصر عملها على الجانب الحسّيّ وهو ضخّ الدّم إلى سائر أنحاء الجسد . وقبل ذلك أصاب العمى بصائرهم فاقتصر عمل الأعين على إبصار المحسوسات . وقبل هذا وذاك أصاب الصّمم آذانهم عن سماع صوت دعوة الحقّ فلم تعد الآذان واعية ، ولكنّها الآذان الّتى تسمع فقط صوت الدّاعى القريب والمنادى البعيد ولا تفهم معنى ما تسمع .

إنّ من لا يفقه قلبه ولا ترى عينه نور الهداية ولا تسمع أذنه دعوة الحقّ كالأنعام. وإذا كانت الأنعام غير المكلّفة تحرص بغريزتها على ما ينفعها فى حين يصرّ المكلّف على ما يضرّه فذلك معناه أنّه أضلّ من الأنعام وأنّه الغافل حقًّا . إنّ هذه هى صفات المصرّين على الكفر والتّكذيب .

الآيـــة رقـــم (١٧٥)

قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الّذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يتلو على بنى إسرائيل المعاصرين له ﷺ فى المقام الأوّل نبأ الرّجل من بنى إسرائيل وخبر ذلك العالم الّذى آتاه الله تعالى علم التّوراة ، وهو بلعم أو بلعام بن باعوراء[١] والمعروف أنّ النّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمة يحصل به علمٌ أو غلبة ظنّ[٢] وتبدو مسئوليّة هذا العالم الخطيرة تجاه العلم الّذى آتاه الله تعالى إيّاه وخصّه به حينما نتبيّن الفرق الدّقيق بين استعمال صيغة المبنى للمفعول أو المجهول : « أوتوا » وبين استعمال صيغة المبنى للمعلوم : « آتى » إنّ كلّ موضعٍ ذُكِر فى وصف الكتاب ﴿ آتينا ﴾ فهو أبلغ من كلّ موضعٍ ذُكِرَ فيه ﴿ أوتوا ﴾ لأنّ أوتوا قد يقال إذا أولي من لم يكن منه قبول . وآتيناهم يقال فيمن كان منه قَبول[٣].

إنّ هذا العالم من بنى إسرائيل قد آتاه جلّ وعلا من لدنه علم آيات التّوراة وأعطاه علمًا لدنيًّا قبله هذا العالم وسعد به . ثمّ تحوّل هذا العالم من النّقيض إلى النّقيض . فبعد القبول منه لذلك العلم والرّضا به والسّعادة من أجله كان الرّفض له، والسّخط عليه ، والانسلاخ منه ، ذلك العلم المتعلّق بآيات الله تعالى فى التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام . وقد نصّت الآية الكريمة على انسلاخ ذلك العالم من آيات الله تعالى كما تنسلخ الحيّة من جلدها وتخرج منه وتهمله وتستبدل به غيره . قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الّذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ فالانسلاخ كان من كلّ آيات الله تعالى وعن عمدٍ وسبق إصرار .

---

(١) انظر مثلاً أسباب النّزول ٢٦١ وتفسير الطّبريّ ٨٢/٩ ــ ٨٤ وتفسير ابن كثير ٢٦٤/٢ و٢٦٥ وتفسير ابن عطيّة ١٤١/٦ ــ ١٤٤ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نبأ » ٤٨ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أتى » ٩ .

وما معنى الانسلاخ من آيات الله تعالى البيّنات ، وهجر العلم النّافع عمدًا ، وعدم الانتفاع بذلك العلم والعمل به ؟ أن تتلقّف ذلك المنسلخ من آيات الله تعالى الشّياطين . وذلك ما نصّت عليه الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ فأتبعه الشّيطان ﴾ والمعنى أنّ الشّيطان الرّجيم لحقه وصار معه[١] وأدركه فصار قرينه[٢] وقد قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ ومن يكن الشّيطان له قرينًا فساء قرينًا ﴾ وما هي الثّمرة النّكدة للاستبدال بآيات الله تعالى البيّنات صحبة الشّيطان الرّجيم والانقياد له ؟ أن يكون من الغاوين الضّالّين على نحو ما بيّنت الآية الكريمة : ﴿ فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين ﴾ والمعروف أنّ الغيّ ضدّ الرّشد وخلافه[٤] . فالغيّ جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[٥] والرّشد يُسْتَعْمَلُ استعمال الهداية[٦] وقد عرفنا أنّ هذا العالم قد غوي بعد الرّشد . والغيّ الضّلال فى العلم والقصد ، وهو أخصّ بفساد القصد والعمل ، كما أنّ الضّلال أخصّ بفساد العلم والاعتقاد . فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر[٧] .

وبشأن بلاغة جملة أتبعه جاء فى الفوائد لابن القيّم[٨] : « إنّ الشّيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه . ولهذا قال : ﴿ فأتبعه الشّيطان ﴾ ولم يقل تبعه ، فإنّ فى معنى أتبعه أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى » .

وما نتيجة مفارقة هذا الغويّ الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا بدليل انسلاخه من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحيّة من قشرها[٩] ؟ الجواب فى .

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٤٤/٦ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « تبع » ٧٢ .
(٢) الجلالين . (٣) سورة النّساء ٣٨ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «رشد» ١٩٦. (٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : «غوى» ٣٦٩.
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رشد » ١٩٦ .
(٧) الفوائد لابن القيّم ١٣٣ . (٨) ص ١٣٣ .
(٩) الفوائد لابن القيّم ١٣٣ .

الآيـــة رقـــم (١٧٦)

قال تعالى : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بهـا ولكنّه أخلـد إلى الأرض واتّبـع هـواه فمثلـه كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثـل القـوم الّذيـن كذّبـوا بآياتنا . فاقصص لعلّهم يتفكّرون ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعـالى لا يظلـم مثقـال ذرّة ، والّذيـن يجـاهدون فيـه جـلّ وعـلا يهديهم سبله عزّ وجـلّ ، والّذيـن يهتـدون يزيدهـم هـدًى ويؤتيهـم تقواهـم ، وفـى المقابل يزيد الله تعالى الّذين فى قلوبهم مرضٌ رجسًا إلى رجسهم وانصرافًا عن الحـقّ إلى انصرافهم وعمى بصائر إلى عماهم .

وبشأن الّذى آتاه الله تعالى آياته عرفنا أنّه بمحض إرادته وبسابق إصـرارٍ منـه قـد انسلخ من آيات الله تعالى بالكلّيّة فأتبعه الشّيطان الرّجيم وأدركه ولحقـه وكـان لـه قرينًا ، بل صيّره لنفسه تابعًا[١] فكان من الغاوين قصدًا وعملاً .

وما دام الرّجل لم يشأ رفع الله تعالى له إنّما أصرّ على الخفض والذّلّة والهوان فإنّ الله سبحانه قد زاده خفضًا وذلّـةً وهوانًـا . وهـذا المعنـى عـبّرت الآيـة الكريمـة عنـه بالقول : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ وما دام الرّجل لم يشـأ رفـع الله تعـالى لـه إنّمـا أراد الإهانة وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ ومن يُهِنِ الله فمـا لـه مـن مكـرم ﴾ فإنّـه واصل انحطاطه إلى منتهى الدّرك وها هو ذا يُخْلِد إلى الأرض ويلصق بها ويتّبع هـواه ويتّخذه قائده وإمامه . قال تعالى : ﴿ ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ﴾ ويرتبط بالإخلاد إلى الأرض الثّبات والملازمة واللّصوق بها . يقول ابن فـارس[٣] : « الخـاء واللّام والدّال أصلٌ واحدٌ يدلّ على الثّبات والملازمة ... ويقال أخلـد إلى الأرض إذا لصق بها » ويقول الرّاغب الأصفهانيّ[٤] : « وإخلاد الشّـيء جَعْلُـهُ مُبْقًـى والحكـم

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٨٤ .
(٢) سورة الحجّ ١٨
(٣) معجم مقاييس اللّغة : « خلد » ٢/٢٠٧ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خلد » ١٥٤ .

عليه بكونه مُبْقًى . وعلى هذا قوله سبحانه : ﴿ ولكنّه أخلد إلى الأرض ﴾ أي رَكَنَ إليها ظانًّا أنّه يخلد فيها » .

ويرتبط بذكر الأرض التّراب ومتاع الحياة الدّنيا الرّخيص ومتعها الزّائلة . إنّ الرّجل الّذى هجر آيات الله تعالى بالكلّيّة وانصرف عن الآخرة وجعل الحياة الدّنيا غاية همّه وبهرجها الزّائل منتهى طلبه اتّبع هواه وجعله قائده وإمامه . وبذلك يكون قد اصطلح على هذا المنسلخ عن آيات الله تعالى واجتمع عليه الشّيطان الرّجيم الّذى يطارده ويلاحقه ويصاحبه ، ونفسه الأمّارة بالسّوء بين جنبيه الّتى تدفعه إلى مهاوى الرّدى وتشدّه إلى متاع الدّنيا الرّخيص . وبهرج الأرض الزّائل ، وزينة التّراب الخدّاعة ، وهواه الّذى يتّبعه ويتّخذه إلـٰهه ومعبوده . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ أرأيت من اتّخذ إلـٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تَحْسَب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون . إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا ﴾ وقال عزّ من قائل[2] : أفرأيت من اتّخذ إلـٰهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غِشاوةً فمن يهديه من بعد الله . أفلا تذكّرون ﴾ وهكذا يرتبط بالإخلاد إلى الأرض الإقامة بها[3] والرّكون والميل إليها والرِّضا بها[4] وأيّ حيوان ألصق بالأرض من غيره ؟ إنّه الكلب الأشدّ حرصًا وشرهًا « ومِنْ حرصه أنّه لا يمشى إلاّ وخطمه فى الأرض يتشمّم ويستروح حرصًا وشرهًا »[5] .

وما الّذى يترتّب على هذه الصّفات فى حقّ من انسلخ من آيات الله تعالى بعد علمٍ وعن عمد وسبق إصرار ؟ عدم الاستعداد لسماع دعوة الحقّ سماع فهمٍ وتدبّر ، والإقبال الكلّيّ على الحياة الأولى ، وإغفال الحياة الآخرة من أيّ اعتبار ، واللّصوق بالأرض كالكلب .

---

(١) سورة الفرقان ٤٣ و٤٤ . (٢) سورة الجاثية ٢٣ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨٧/٩ ولسان العرب : « خلد »

(٤) لسان العرب : « خلد » . (٥) التّفسير القيّم للإمام ابن القيّم ٢٨١ .

وتحقيرًا لشأن هذا المنسلخ من آيات الله تعالى المُخْلِد إلى الأرض ، الغائص فى الوحل ، اللاّصق بالتّراب تجعل الآية الكريمة مثله مثل الكلب السّاقط الهمّة الدّنىء النّفس الشّديد الحرص . ما أشدّ الانسجام بين ذلك المنسلخ من آيات الله تعالى ، اللاّصق بالأرض ، المطمئنّ إليها ، وبين جنس الكلب مضرب المثل فى الحرص والشّره وسقوط الهمّة ودناءة النّفس والتّكالب على حطام هذه الحياة الدّنيا .

إنّ مَثَلَ ذلك الّذى انسلخ من آيات الله تعالى واتّبع هواه وأتبعه الشيطان فأدركه وصار له قرينًا ، وأخلد إلى الأرض ولصق بها ولزمها وسكن إليها ، وكان من الغاوين وسيلةً وغاية ، عملاً وهدفًا ، إنّ مَثَلَ ذلك الّذى تلك صفاته كمثل الكلب مضرب المثل فى الجشع وشدّة الحرص على سَقَط المتاع وفرط الطّمع حتّى إنّه ليلهث على كلّ حال ، ويَدْلَعُ لسانه فى كلّ وقتٍ من شدّة العطش والحرّ[1] إنّك إن تحمل عليه وتطرده[2] وترغمه على الابتعاد عنك يلهث ويتتابع نَفَسُه ويتدلّى لسانه دليل الإعياء وفرط حرّ العطش فى الجوف[3] وإنّك إن تتركه وشأنه ، وتهمله مكانه يظلّ يلهث فيتتابع نَفَسُه ، ويدلَعُ لسانُه . وإنّك إن تركته ربّما شدّ عليك ونبح[4] .

وهكذا يظلّ الكلب دون سائر الحيوان يلهث على كلّ حال ، سواءٌ أهجته وأزعجته ، أو تركته وأهملته . إنّه يظلّ دائمًا لاهثًا ، وإنّ لسانه يظلّ دائمًا دالعًا ، دليل التّعب والنّصب ، ودليل العطش والسَّغَب . وإنّ المعرض عن آيات الله تعالى المنسلخ منها الّذى جعل الحياة الأولى غاية مطلبه ومنتهى همّه يستمرّ على حاله فى الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى سواءٌ عَنُفْتَ به فى دعوتك له إلى الله تعالى وقسوت أو رفقت به ولنت . إنّ موقفه من دعوتك له إلى الله تعالى بكلّ الوسائل

---

(١) لسان العرب : « خلد » .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨٨/٩ والفوائد لابن القيّم ١٣٤ والتّفسير القيّم ٢٨٠ ــ ٢٨٢ والكشّاف ٥٨٧/١ .

(٣) انظر لسان العرب : « لهث » .

(٤) لسان العرب : « لهث » .

واحدٌ لا يتغيّر . إنّه الرّفض دليل الحرص على المتع الرّخيصة الأرضيّة فى هـذه الحياة الأولى وعلى سفساف الأمور وحقيرها إلى الحـدّ الّـذى يتتـابع معـه نَفَسُـه ، ويظهـر لَهَثُه. وهكذا يشترك المنسلخ من آيات الله تعالى المعرض عنها مع الكلـب فـى شـدّة الحرص على الحُطام واللّصوق بالأرض وكأنّه خالدٌ فوق تراب هذه الأرض .

والعجيب فى الأمر أنّ هذه الحال الشّديدة الرّداءة يرضى بها ويطمئنّ إليها ذلـك الّذى انسلخ من آيات الله تعالى بعد أن أدرك معانيها السّامية وذاق حلاوة الإيمان . والعجيب فى الأمر كذلك أنّ هذا المَثَل هو مثل القوم الّذين جاءتهم آيات الله تعالى فكذّبوا بها ، وأعرضوا عنها ، وصدّوا عن سبيل الله تعالى ، وانصرفوا عن الآخرة ، وأقبلوا على الحياة الدّنيا ورضوا بها واطمـأنّوا إليهـا ، وأخلـدوا إلى الأرض ولصقـوا بالتّراب ، وتشبّثوا بسفساف الأمور وأعرضوا عن جليلها . قال تعالى : ﴿ فمثله كمثـل الكلب إن تَحْمِلْ عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مَثَلُ القوم الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ .

« قال ابن قتيبة : كلّ شيءٍ يلهث فإنّما يلهث من إعياءٍ أو عطـش ، إلاّ الكلـب فإنّه يلهث فى حال الكلال[1] وحال الرّاحة ، وحال الرّيّ وحال العطـش . فضربـه الله مثلاً لهذا الكافر فقال : إن وعظته فهو ضالّ ، وإن تركته فهو ضالّ . كـالكلب إن طردته لهث ، وإن تركته على حاله لهـث »[2] وقـال أبـو هـلالٍ العسـكريّ[3] : « أخرج ما لا تقع عليـه الحاسّـة إلى مـا تقـع عليـه مـن لَهَـث الكلـب . والمعنـى أنّ الكلب لا يطيعك فى ترك اللّهث على حال ، وكذلك الكـافر لا يجيبـك إلى الإيمـان فى رفقٍ ولا عنف » .

ومن البيّن أنّ الإنسان الّذى كرّمه الله تعالى وأسبغ عليه الكثير من النّعم وبخاصّـةٍ نعمة العقل حينما ينحدر إلى درك أشدّ الحيوانات حرصًا ، وأهونها شـأنًا ، وأدناهـا

---

(١) الكلال : التّعب .

(٢) الفوائد لابن القيّم ١٣٤ وانظر ـ مثلاً ـ الحيوان للجاحظ ٣٨/٤ و٣١٢/١ .

(٣) كتاب الصّناعتين ٢٤٠ .

همّة ، وأحطّها قدرًا ، وأخبثها نفسًا ، يكون معنى ذلك أنّه أضلّ سبيلاً من الأنعام ـ والعياذ بالله ـ ويلاحظ أنّ السّياق سوف ينصّ على هذا المعنى مستقبلاً .

وبقصد أن يرعوي المعرضون عن آيات الله تعالى الصّادّون عن سبيل الله تعالى إلى رشدهم تأمر الآية الكريمة فى التّذييل المصطفى ﷺ أن يقصّ القَصص ، ويقرأ القرآن الكريم ويرتّله ترتيلاً فلعلّ الضّالّين تعود إليهم عقولهم ويرجع إليهم تفكيرهم ويهجرون طريق الكفر ويعودون إلى جادّة الصّواب ويسيرون فى الصّراط المستقيم . قال تعالى : ﴿ فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون ﴾ .

وبمثابة التّعقيب على المَثَل الّذى نُزّل فيه المنسلخ عن آيات الله تعالى المصرّ على الكفر منزلة الكلب الدّائم اللّهَث تجىء .

الآيـــة رقـــم (١٧٧)

قال تعالى : ﴿ ساءَ مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ .

ساء : فعل ماضٍ لإنشاء الذّمّ ، والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره هو . وقد جاء مميّزًا بكلمة : مثلاً ، وهو تمييز منصوب[1] والمعنى : بئس مثلاً القوم الكافرون الّذين انسلخوا من آيات الله تعالى والّذين كذّبوا بآياتنا فكان مثلهم مثل الكلب السّاقط المنزلة الدّنيء الهمّة بجامع الإصرار على التّكذيب فى حقّ الكافرين واللّهث فى حقّ الكلب .

ولمّا كانت الخسارة مرتدّةً على الكافرين فى حقيقة الأمر ، فالله سبحانه وتعالى هو الغنيّ ونحن الفقراء ، فإنّ الآية الكريمة تعبّر عن هذه الحقيقة بالقول : ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ إنّ المكذّبين إنّما ظلموا أنفسهم لأنّهم حرموها الأجر ، وجشّموها الوزر ، فكانوا هم الخاسرين حقًّا على نحو ما بيّنت .

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٥/١١٥ .

الآيـــة رقـــم (١٧٨)

قال تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ومن يُضْلِلْ فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

إنّ الّذى يهديه الله تعالى هو المهتدى حقًّا ، وقد قال عزّ من قائل[١] . ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا . وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ والّذين اهتَدَوْا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ . أمّا الّذين يهديهم الله تعالى فيستحبّون العمى على الهدى مِثْل أولئك الّذين مثلهم مثل الكلب فإنّهم هم الخاسرون حقًّا لأنّ الله سبحانه وتعالى يزيدهم ضلالاً إلى ضلالهم ، وعمًى إلى عماهم .

ولّما كان الّذين مثلهم مثل الكلب ينحطّون عن درك الأنعام الّتى لا عقل لها والّتى تحرص بالغريزة على مصلحتها فإنّ الآية الكريمة التّالية تقرّر هذه الحقيقة ضمن مجموعةٍ من الحقائق أُخر فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٧٩)

قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرًا من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

فى أسلوب القسم ، فاللاّم من ﴿ لقد ﴾ لام القسم لقسمٍ مقدّر[٣] تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة ذرأ لجهنّم وخلق وجعل[٤] للنّار وبئس القرار كثيرًا من الجنّ

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .
(٢) سورة محمّد ١٧ .
(٣) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١١٧/٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢٦٨/٢ وتفسير الطّبريّ ٩٠/٩ .

والإنس فهم أصحابها وأهلها. وتعيّن الآية الكريمة ثلاثة أسبابٍ وراء غفلة هؤلاء الخاسرين وانحطاطهم عن درك الأنعام . إنّ للقوم قلوبًا ولكنّهم لا يفقهون بها ، وإنّ لهم أعينًا ولكنّهم لا يبصرون بها ، وإنّ لهم آذانًا ولكنّهم لا يسمعون بها .

وبشأن الحديث عن القلوب والأعين والآذان هنا نودّ أن نستأنس ببعض ما قلنا بشأن الآية الكريمة تمام المائة من هذه السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ أَوَلم يهد للّذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ .

من المعروف أنّ ثمّة حاسّتين اثنتين تتقدّمان سواهما فى الحصول على المعرفة وهما الأذن ووسيلتها السّمع ، والعين ووسيلتها الإبصار . ومن المعروف كذلك أنّ الأذن تتقدّم العين فى هذا المضمار بدليل تقديم القرآن الكريم السّمع على البصر باستثناء بعض المواضع الّتى اقتضت تغيير التّرتيب . ومن هذه المواضع الآية الكريمة الّتى نحن بصددها .

لقد جرت العادة بأن تسبق الأذنُ العين وتتقدّمها فى هذا المضمار ولهذا يغلب فى القرآن الكريم تقديم السّمع على البصر وتأخير الفؤاد أو القلب عنهما على نحو ما يتبيّن ــ مثلاً ــ من قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الإسراء[1] : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم . إنّ السّمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ ولـلأذن وظيفتان ، السّماع مجرّدًا ، وهذه الوظيفة يشترك فيها الإنسان وغير الإنسان ممّا لا يعقل ، والسّماع الواعى ، وهذه الوظيفة ينفرد بها الإنسان ، ولهذا كان مكلّفًا . وللعين كذلك وظيفتان . الرّؤية بالعين المجرّدة ، وهذه الوظيفة يشترك فيها الإنسان وغير الإنسان كذلك ، والرّؤية بعين البصيرة ، وهذه الوظيفة ينفرد بها الإنسان كذلك.

وحينما تكون الأذن واعيةً ، بمعنى أنّ الأذن قامت بوظيفتها الأخرى المهمّة ، فإنّ الحديث الحسن والكلم الطّيّب يستقرّ فى القلب أو الفؤاد . وإنّ الشّىء ذاته يقال

---

(١) الآية ٣٦ .

حينما تكون العين مبصرة على الحقيقة ، بمعنى أنّ العين قامت بوظيفتها الأخرى المهمّة الّتى سمّيناها البصيرة النّيّرة . أمّا حينما تكون الأذن غير واعية فإنّها لا تسمع صوت الحقّ سماع قبول . وإلى هذه الحال أشارت الآية الكريمة بالقول : ﴿ ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ﴾ وكذلك حينما تكون العين غير مبصرةٍ على الحقيقة . وإلى هذه الحال أشارت الآية الكريمة بالقول : ﴿ ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ﴾ ودليلاً على الأذن غير الواعية والعين غير المبصرة على الحقيقة جاء فى الآية الكريمة القول : ﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ﴾ .

إنّ آذان القوم تقف عند السّماع المجرّد .

وإنّ أعين القوم تقف عند الإبصار المجرّد .

وإنّ قلوب القوم تقف عند عملها الحركي بأن تضخّ الدّم إلى سائر أنحاء الجسد وكفى .

وإنّ هذه المرحلة الأولى من أعمال الأذن والعين والقلب يشترك فيها الإنسان وغير الإنسان كما يتبيّن . وما معنى اكتفاء الأذن والعين والقلب بالعمل الّذى يشترك فيه الإنسان والحيوان ؟ معناه أنّ الإنسان رضي بأن يكون منحطًّا فى مستوى درك الأنعام .

ولكنّ الإنسان كرّمه ربّه ومنّ عليه بالكثير من النّعم وفى مقدّمتها العقل الّذى يستطيع بإذن الله تعالى حينما يحسن استعماله أن يجعل الآذان والأعين والقلوب قادرةً على تجاوز المرحلة الأولى الحسّيّة إلى المرحلة الأخرى المعنويّة . فما معنى تعطيل الإنسان هذه النّعم عن العمل ؟ معناه أنّه رضي بأن يكون فى مستوى الأنعام أي الحيوان .

وحينما تكون الأنعام غير المكلّفة حريصةً بالغريزة على ما ينفعها ، مبتعدةً عمّا يضرّها ، ويكون الإنسان المكلّف حريصًا على ما يضرّه ، مبتعدًا عمّا ينفعه . فما معنى ذلك ؟ معناه أنّه أضلّ من الأنعام . ومن هو الشّخص الّذى يفعل ذلك

ويرضى بذلك العمل ويسعد به ؟ إنّه الشّخص الغافل الّذى يستوى فى حقّه عدم وجود الخطر ووجوده بسبب بلاهته وعدم فطنته وغفلته . إنّ هذه المعاني عبّرت عنها الآية الكريمة بالقول: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم اضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾.

ويأتى بعد ذلك السّؤال : هل فى الإمكان معرفة الحكمة من إعادة ترتيب هذه الأمور الثّلاثة وقلبها رأسًا على عقب . الأذن والعين والقلب ؟

وللجواب على ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، يصحّ أن يقال : إنّ الآية الكريمة السّابقة : ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ قد خُتِمَتْ بذكر الضّلالة وخسارة الضّالّين . وإنّما يكون الخسران ثمرةً نكدةً للضّلالة . وإنّما تكون الضّلالة ثمرةً نكدةً لسوء استعمال النّعم وفى مقدّمتها الأذن والعين والقلب . وإنّما يتأكّد كلٌّ من الخُسْران والضّلالة فى النّهاية فى هيئة القلب الّذى لا يفقه ، والعين الّتى لا تبصر نور الهداية ، والأذن الّتى لا تسمع صوت الحقّ سماع قبول . وإنّ الضّلالة الّتى خُتِمت الآية الكريمة السّابقة بذكرها يدلّ عليها دلالةً أكيدةً القلب الّذى لا يفقه ، ولهذا تقدّم فى الذّكر هذا الدّليل الأكيد على الثّمرة النّكدة ، ويدلّ عليها إثر ذلك العين الّتى لا ترى نور الهداية فهي عينٌ غير بصيرة ، ولهذا جاء ذكر العين بعد ذكر القلب . وأخيرًا جاء الدّليل الثّالث والأخير وهو الأذن الّتى لا تسمع صوت الحقّ سماع قبول . وهكذا كان ترتيب القلب والعين والأذن بقصد تأكيد النّتيجة الخاسرة والضّلال المبين مغايرًا تمامًا ترتيب هذه الجوارح حينما يكون الحديث يقصد إلى تبيين وسائل الهداية وتعيين عناصر المعرفة . وهكذا جاء فى الآية الكريمة التّرتيب وفق هذا النّسق ، القلب ، العين ، الأذن ، تنبيهًا على إمهال الله تعالى للقوم الظّالمين الّذين ظنّوا الإمهال إهمالاً . إنّ القلوب الّتى لا تفقه كما دلّت على الإملاء للقوم والإمهال دلّت الأعين والآذان . والله سبحانه وتعالى أعلم .

[٢٣]

« لله الأسماء الحُسْنى وانظروا فى ملكوت السّماوات والأرض »

الآيــات (١٨٠ ـ ١٨٦)

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ
أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ
كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا
هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

تحدّث السّياق من ذى قبل عن المكذّبين بآيات الله تعالى الّذين مَثَل الواحد منهم كمثل الكلب بجامع الإصرار على التّكذيب فى حقّ الكافرين ، والإصرار على اللّهَث فى حقّ الكلب ، فهؤلاء المكذّبون كالأنعام بل هم أضلّ . وقد ألحد أولئك المكذّبون فى أسماء الله تعالى الحُسْنى فمالوا بها عن طريق الاستقامة وأدخلوا فيها ما ليس منها وأخرجوا منها حقائق معانيها بأن اشتقّوا من بعض أسماء الله تعالى الحُسْنى أسماءً لآلهتهم المعبودة من دون الله تعالى . إنّ السّياق فى هذا القِسْم التّالى يقرّر أنّ لله تعالى الأسماءَ الحسْنَى والصّفاتِ العُلَى فعلينا أن ندعوه جلّ وعلا بها . والمعروف أنّ لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد اسمًا واحدًا هو : ﴿ الله ﴾ أمّا باقى الأسماء تمام التّسعة والتّسعين كما نصّ على ذلك الحديث الصّحيح فإنّها صفات ، بدليل أنّ اسم الجلالة : ﴿ الله ﴾ يوصَف بها جميعها . وإذا كان لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ عظيم الأسماء فإنّ :

﴿ الرّحمن ﴾ عظيم الصّفات . وبعد الأمر بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى يأتى الأمر بترك المكذّبين الّذين يلحدون فى أسمائه جلّ وعلا ويميلون بها عن طريق الاستقامة فإنّهم سيُجْزون ما كانوا يعملون . والأمر بالتّرك قبل الأمر بالقتال . وإنّ ممّن خلق الله تعالى أمّة محمّد ﷺ الّذين يهدون الآخرين إلى الحقّ الّذى هداهم الله تعالى إليه ويعدلون به فى الأحكام وغيرها . أمّا الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى فإنّ الله تعالى يستدرجهم من حيث لا يعلمون أنّه استدراجٌ لهم ، ويملى لهم من حيث لا يعلمون أنّه مكرٌ من الله تعالى بهم وكيدٌ متينٌ منه جلّ وعلا لهم . وإنّ على كفّار مكّة أن يتفكّروا جيّدًا فى شأن محمّد ﷺ كي يتأكّدوا أنّه ليس من الجنون فى شىءٍ وأنّه ليس سوى النّذير المبين لهم بين يدي العذاب الشّديد إنّ لم يؤمنوا . وإنّ عليهم أن ينظروا فى ملك الله تعالى العظيم فى السّماوات والأرض ، وفى كلّ شىءٍ خلقه الله تعالى . كي ينتهوا إلى أنّ الله تعالى هو الواحد الأحد المستحقّ وحده أن يُعْبَد ، وفى أنّه عسى أن يكون أجلهم قد اقترب قبل أن يؤمنوا فإنّ مصيرهم إلى النّار وبئس القرار إن ماتوا وهم كفّار . إنّ كفّار مكّة ، وهم أرباب الفصاحة ، إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب العزيز الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ، وبأيّ كتابٍ وراءه يصدّقون . إنّ لسان الحال يقول إنّكم حينما تصرّون على الكفر يزيدكم الله تعالى عمًى وضلالاً . وإنّ آخر آيات القسم ينطق لسانها بهذا المعنى : ﴿ من يُضْلِلِ الله فلا هادي له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

الآيـــة رقـــم (١٨٠)

قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحُسْنَى فادعوه بها وذروا الّذين يُلْحِدون فى أسمائه . سيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ لله تعالى وحده لا شريك له الأسماء الحُسْنى والصّفات العُلَى فعلينا أن ندعوه جلَ وعلا بها وأن نسمّيه بها . والحُسْنى مؤنّث الأحسن[١] وجاء فى اللّسان[٢] : « وقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحُسْنى ﴾ ، تأنيث الأحسن. يقال : الاسم الأحسن والأسماء الحُسْنَى » والحُسْن ضدُّ القبح ونقيضه[٣] وفى الصّحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ لله تسعًا وتسعين اسمًا ، مائةً إلاّ واحدًا ، من أحصاها دخل الجنّة ، وهو وترٌ يحبّ الوتر[٤] وأخرجه التّرمذيّ فى جامعه « وزاد بعد قوله يحبّ الوتر : هو الله الّذى لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر الخالق البارئ المصوّر الغفّار القهّار الوهّاب الرّزّاق الفتّاح العليم القابض الباسط الخافض الرّافع المعزّ المذلّ السّميع البصير الحكم العدل اللّطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشّكور العليّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرّقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشّهيد الحقّ الوكيل القويّ المتين الوليّ الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحيّ القيّوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصّمد القادر المقتدر المقدّم المؤخّر الأوّل الآخر الظّاهر الباطن الوالى المتعالى البرّ التّوّاب المنتقم العفوّ الرّءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنيّ

---

(١) الجلالين ولسان العرب « حسن » .
(٢) « حسن » .
(٣) لسان العرب : « حسن » .
(٤) تفسير ابن كثير ٢٦٨/٢ وانظر فتح البارى ٢١٤/١١ حديث رقم ٦٤١٠ .

المغنى المانع الضّارّ النّافع النّور الهادي البديع الباقى الوارث الرّشيد الصّبور . ثمّ قال التّرمذيّ : هذا حديثٌ غريب . وقد رُوي من غير وجهٍ عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثيرٍ من الرّوايات ذكر الأسماء إلاّ فى هذا الحديث . ورواه ابن حبّان فى صحيحه من طريقٍ صفوان به[1] وقد رواه ابن ماجه فى سننه من طريقٍ آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعًا فسرد الأسماء كنحوٍ ممّا تقدّم بزيادةٍ ونقصان»[2] ويقول ابن كثير[3] : « ثمّ ليعلم أنّ الأسماء الحُسْنى غير منحصرة فى تسعةٍ وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل ابن مرزوق عن أبى سلمة الجهنيّ عن القاسم بن عبد الرّحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال : ما أصاب أحدًا قطّ همٌّ ولا حزن فقال : اللّهمّ إنّى عبدك ابن عبدك ابن أَمَتِك ناصيتى بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك ، أسألك بكلّ اسمٍ هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علّمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همّى ، إلاّ أذهب الله حزنه وهمّه وابدل مكانه فرحًا . فقيل : يا رسول الله أفلا نتعلّمها ؟ فقال : بلى . ينبغى لكلّ من سمعها أن يتعلّمها[4] .

وبعد أن أشار القرطبيّ فى تفسيره إلى مؤلّفه : الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، الّذى بيّن فيه حديث التّرمذيّ وسنن ابن ماجه وقرّر أنّ فى أحدهما من أسماء الله تعالى الحُسْنَى ما ليس فى الآخر يقول[5] : « قال ابن عطيّة ــ وذكر حديث التّرمذيّ ــ وذلك الحديث ليس بالمتواتر ، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى : هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلاّ من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل

---

(١) أحد رواة الحديث عند التّرمذيّ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩ .
(٥) تفسير القرطبيّ ٢٧٦١ .

الحديث . وإنّما المتواتر منه قوله ﷺ : إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا ، مائةً إلاّ واحدًا ، من أحصاها دخل الجنة » ويضيف القرطبيّ ، مشيرًا إلى مؤلّفه : الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحُسْنى[١] : « وذكرنا هناك تصحيح حديث التّرمذيّ ، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمِعَ عليه وما اختُلِفَ فيه ممّا وقفنا عليه فى كتب أئمتنا ما يُنيِّفُ على مائتي اسم » وإليك ما قال ابن عطيّة فى تفسيره[٢] : « وقد ورد فى التّرمذي حديثٌ عن أبى هريرة ونصّ فيه تسعةً وتسعين اسمًا ، وفى بعضها شذوذ ، وذلك الحديث ليس بالمتواتر ، وإنّما المتواتر منه قول النّبيّ ﷺ : إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلاّ واحدًا ، من أحصاها دخل الجنّة ... وهذا حديث البخاري ، والمتحصّل منه أنّ لله تبارك وتعالى هذه الأسماءَ مباحًا إطلاقها . وورد فى بعض دعاء النّبيّ ﷺ : يا حنّان يا منّان ، ولم يقع هذان الاسمان فى تسمية التّرمذيّ » .

ومعنى القول فى الحديث : من أحصاها دخل الجنّة : من عدَّها وحفظها[٣] عن ظهر قلب ، أو أحاط بمعانيها ، أو عمل بتلك المعانى[٤] ومن البيّن أنّ الإحاطة بمعانى الأسماء الحُسْنى أرفع من حفظها عن ظهر قلب ، وأنّ العمل بتلك المعانى أرفع من مجرّد الإحاطة بالمعانى .

وقد فهم القرطبيّ القول فى الحديث : « وهو وترٌ يحبّ الوتر » بأوسع من صلاة الوتر مثلاً[٥] يقول القرطبيّ[٦] فى هذا المعنى : « ويظهر لي وجهٌ آخر ، وهو أنّ الوتر يراد به التّوحيد ، فيكون المعنى أنّ الله فى ذاته وكماله وأفعاله واحدٌ ويحبّ التّوحيد ، أي أن يوحّد ويعتقد انفراده بالألوهيّة دون خلقه فيلتئم أوّل الحديث وآخره . والله أعلم » .

ومن المعروف أنّ للذّات العليّة اسمًا واحدًا هو ﴿ الله ﴾ أمّا باقى الأسماء الحُسْنى

---

(١) تفسير القرطبيّ ٢٧٦١ .
(٢) ٦ / ١٥٥ .
(٣) تفسير ابن عطيّة ٦ / ١٥٦ .
(٤) انظر هنا فتح البارى ١١ / ٢٢٥ .
(٥) انظر هنا فتح البارى ١١ / ٢٢٧ .
(٦) نقلاً عن فتح البارى ١١ / ٢٢٧ .

فإنّها صفاتٌ لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوًا أحد . والدّليل على ذلك أنّ الاسم الواحد للذّات العليّة : ﴿ الله ﴾ يوصف بسائر الأسماء الحُسْنى ومن ذلك قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الحشر[1] : ﴿ هو الله الّذى لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشّهادة هو الرّحمن الرّحيم . هو الله الّذى لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر . سبحان الله عمّا يشركون . هو الله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحُسْنَى . يسبّح له ما فى السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . وقد جمعت هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء[2] بين عظيم أسماء الله تعالى وعظيم صفاته . قال تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيًّا مّا تدعو فله الأسماء الحُسْنَى . ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ .

وإذا كانت آية سورة الأعراف الكريمة قد أمرت بأن ندعو الله تعالى بأسمائه الحُسْنَى وصفاته العُلَى فإنّها أردفت هذا الأمر بأمرٍ آخر وذلك بأن نذر ونترك[3] ونهجر الّذين يلحدون فى أسماء الله تعالى وأن نعرض عن الّذين مالوا عن الحقّ فى أسمائه جلّ وعلا[4] وجاروا بها عن القصد[5] وحادوا بها عن الاستقامة[6] والإلحاد فى أسمائه جلّ وعلا على وجهين . أحدهما أن يوصف بما لا يصحّ وصفه به . والثّانى أن يَتَأوَّل أوصافَه على ما لا يليق به[7] وقد ألحد المشركون فى أسمائه الحُسْنى جلّ وعلا ومالوا عن الحقّ ، وذلك بتسمية الأوثان بها كما يسمّونها آلهة « قال ابن عبّاس ومجاهد : عدلوا بأسماء الله تعالى عمّا هي عليه ، فسمّوا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا . فاشتقّوا اللاّت من الله ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنّان . وروي

---

(١) الآيات ٢٢ ـ ٢٤ . (٢) الآية ١١٠ .

(٣) تفسير ابن عطيّة ٦ / ١٥٦ والجلالين .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « لحد » ٤٤٨ والجلالين ومعجم مقاييس اللّغة : « لحد » ٥ / ٢٣٦ وتفسير الطّبريّ ٩/٩١ . (٥) لسان العرب « لحد » .

(٦) انظر مقاييس اللّغة : « لحد » ٥/٢٣٦ . (٧) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « لحد » ٤٤٨.

عن ابن عبّاس ﴿ يلحدون فى أسمائه ﴾ يكذبون عليه . وهذا تفسيرٌ بالمعنى . وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها عن الصّواب فيها ، وإدخال ما ليس من معانيها فيها ، وإخراج حقائق معانيها عنها . هذا حقيقة الإلحاد . ومن فعل ذلك فقد كذب على الله . ففسّر ابن عبّاسٍ الإلحاد بالكذب ﴾[1]

إنّ أولئك الّذين يُلْحدون فى أسمائه جلّ وعلا وينحرفون بها عن سَنَن القصد وطريق الاستقامة سيُجْزون يوم القيامة جزاء ما كانوا يعملون فى الحياة الدّنيا . وهذا قبل الأمر بالقتال[2] .

وفى مقابل هؤلاء الّذين عدلوا عن القصد وجاروا عنه وأعرضوا هنالك الأمّة المحمّديّة المستقيمة على الحقّ . وإليها أشارت .

الآيــة رقــم (١٨١)

قال تعالى : ﴿ وممّن خلَقْنا أُمّةٌ يَهْدون بالحقّ وبه يَعْدِلون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ممّن خلق الله سبحانه وتعالى أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ . إنّهم أمّةٌ يهدون الآخرين بالحقّ الّذى هداهم الله تعالى إليه ، وبالحقّ يعدلون فى الأحكام وغير الأحكام فى أثناء تعاملهم مع الآخرين . ووجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة فى أمّة محمّد ﷺ وبين الآية الكريمة التّاسعة والخمسين بعد المائة وهي فى أمّة موسى عليه السّلام . قال تعالى : ﴿ ومِنْ قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يَعْدِلون ﴾ عن قتادة أنّ النّبيّ ﷺ كان يقول إذا قرأها : هذه لكم وقد أُعْطِي القوم بين أيديكم مثلها ﴿ ومِنْ قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾[3] وفى الصّحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال طائفةٌ

---

(١) التّفسير القيّم ٢٩ وانظر تفسير الطّبريّ ٩١/٩ .

(٢) الجلالين وانظر تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .

من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتّى تقوم السّاعة. وفي رواية : حتّى يأتي أمر الله وهم على ذلك . وفي رواية : وهم بالشّام[1] .

وإنّ من سمات أفراد الأمّة المحمّديّة أنّهم يدعون الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى جلّ وعلا ، وذلك من مقوّمات الهدى الّذي وفّقهم الله تعالى للتّحلّي به والدّعوة إليه وإنصاف الآخرين بموجبه . أمّا الّذين يلحدون في آيات الله تعالى فإنّهم المكذّبون الّذين يمهلهم الله تعالى بقصد استدراجهم إن لم يكفّوا عن تكذيبهم. وعن هؤلاء المكذّبين تحدّثت .

الآيتان رقم (١٨٢ و١٨٣)

قال تعالى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إنّ كيدي متين ﴾ .

إنّ المكذّبين بآيات الله تعالى عمومًا ، من أهل مكّة خصوصًا ، سوف يستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون ويأخذهم درجةً درجة[2] من حيث لا يشعرون أنّ ما يمدّهم الله تعالى به من مالٍ وبنين وصحّةٍ وسعة رزقٍ وراحة بال وما إلى ذلك إنّما هو إمهالٌ لهم كي يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا ويتّبعوا الرسول النّبيّ الأمّي ﷺ . وأصل الاستدراج اغترار المستدرَج بلطفٍ من حيث يرى المستدرَج أنّ المستدرِج إليه محسنٌ حتّى يورّطه مكروها[3] ولمّا كان الاستدراج يستغرق زمنًا ويقتضي وقتًا فإنْ كفّ المكذّب من غَرْبه وعاد إلى رشده كان ذلك خيرًا له ، وبذلك آتى الإمهال أكله والإملاء ثمرته ، وإلاّ كان الأخذ شديدًا والعذاب أليمًا ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٦٩/٢ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « درج » ١٦٧ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .

فقد نصّت الآية الكريمة على الإملاء والإمهال فى حقّ المكذّب المصرّ على تكذيبه . إنّ الله سبحانه وتعالى يملى لأولئك المكذّبين حتّى إذا ظنّوا الإمهال إهمالاً و لم يتبيّنوا أنّ ذلك كيدٌ من الله تعالى لهم ومكرٌ بهم أخذهم الله تعالى المنتقم الجبّار أخذ عزيزٍ مقتدر . ويتّجه الحديث إلى كفّار مكّة على جهة الخصوص وذلك فى .

الآيـــة رقـــم (١٨٤)

قال تعالى : ﴿ أو لم يتفكّروا ؟ ما بصاحبهم من جنّة . إنْ هو إلاّ نذيرٌ مبين ﴾ .

هلاّ انتفع كفّار مكّة بعقولهم ، وهلاّ تفكّروا فى شأن محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى كانوا يلقّبونه قبل البعثة بالأمين والّذى مكث فيهم أربعين سنةً قبل أن يبعثه الله تعالى رحمةً للعالمين . لقد كان عليه الصّلاة والسّلام فى أعين أهل مكّة مثال الإنسان التّامّ النّعوت الكامل الصّفات الرّاجح العقل الحسن الأخلاق .

هلاّ استعمل كفّار مكّة عقولهم استعمالاً صحيحًا وتفكّروا فيما يدعوهم إليه ﷺ من توحيدٍ لله تعالى ومن مكارم الأخلاق ، كي يتبيّنوا أنّ المصطفى ﷺ هو النّذير البيّن الإنذار لهم بين يدي عذابٍ شديدٍ ، الكامل العقل ، الرّاجح الفكر ، وأنّه ليس بالإنسان الّذى اتّهموه بالجنون ، ووصفوه بأقبح الصّفات ، وجعلوا مَثَلَه ـــ فجأةً ـــ مَثَل الكاذب والشّاعر والكاهن إضافةً إلى مَثَل المجنون . إنّ عليهم أن يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحًا بشأن كل الأمور كي يتبيّنوا أنّ المصطفى ﷺ ، صاحِبَهم الّذى لبث فيهم عمرًا قبل الوحي وبعده ليس به شيءٌ من جنونٍ[1] ولا خَبَل[2] وأنّه رسولٌ من ربّ العالمين ينذر الكافرين بين يدي العذاب الشّديد يوم القيامة . وإذا كانت الآية الكريمة تدعو كفّار مكّة إلى التّفكّر فى شأن محمّد ﷺ فإنّ الآية الكريمة التّالية تضرب على الوتر ذاته بدرجةٍ أكبر فإلى .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جنن » ٩٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ٩٣ .

الآيـــة رقـــم (١٨٥)

قال تعالى : ﴿ أَوَلم ينظروا فى ملكـوت السّـماواتِ والأرضِ ومـا خَلَـقَ الله مـن شيءٍ وأن عَسَى أن يكون قد اقترب أجلهم . فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾ .

أوَلم ينظر كفّار مكّة فى ملك الله سبحانك وتعالى فى السّماوات والأرض بعين البصر والبصيرة كي يتبيّنوا قول الحقّ جلّ وعلا[١] : ﴿ ما تَرَى فى خلق الرّحمن من تفاوت ﴾ وكي تهتف ألسنتهم بقول الحقّ جلّ وعلا[٢] : ﴿ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار ﴾ ردّ فعلٍ للانفعال الّذى ليس عليه من مزيد بضخامة هذا الكون وفخامته ، دقّة نظامه ولطف تنسيقه ، شدّة جماله وفرط كماله وروعة جلاله .

أولم ينظر كفّار مكّة بعين البصر والبصيرة فى ملك الله تعالى العظيم فى السّماوات وفيما خلق الله سبحانه وتعالى من شيءٍ ، أيّ شيءٍ ، ففى كلٍّ يتحقّق جلال المخبر وجمال المنظر . فلننعم النّظر فى كلّ شيءٍ ولنتأمّله ولنتدبّره كي ننتهى حتمًا إلى هذه النّتيجة الحاسمة . التّناسق التّامّ بين جلال المخبر وجمال المنظر والتّكامل العجيب بين الفعل والشّكل .

أولم ينظر كفّار مكّة فى ملكوت الله سبحانه وتعالى فى السّماوات والأرض ، وفيما خلق الله عزّ وجلّ من شيء ، وفى أنّه[٣] عسى كون أجلهم قد اقترب[٤] ومنيّتهم قد حانت ، وموتهم قد حضروهم على الكفر . إنّ موتهم وهم كافرون معناه دخولهم النّار وبئس القرار . وإذا كان كفّار مكّة الّذين يُنَزَّلون منزلة الجماعة

---

(١) سورة الملك ٣ .　　(٢) سورة آل عمران ١٩١ .

(٣) الجدول فى إعراب القرآن الكريم وصرفه ٥ / ١٢٢ والجلالين .

(٤) الجدول فى إعراب القرآن الكريم وصرفه ٥ / ١٢٢.